

تعدد الأصوات في الرواية وعلاقته بالقراءة الثقافية في الرواية العربية: نماذج مختارة

polyphony and its Relationship to Cultural Reading in the Arabic Novel:
Selected Case Studies

الدكتور: بن طيبة إبراهيم

جامعة خميس مليانة – الجزائر

b.bentaiba@univ-dbkm.dz

تاريخ النشر: 2026-06-09	تاريخ القبول: 2026-06-03	تاريخ الإرسال: 2026-05-01
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يتناول هذا البحث مفهوم تعدد الأصوات (Polyphony) في الرواية بوصفه مقولة نقدية تأسس لها ميخائيل باختين، ويدرس علاقته بالقراءة الثقافية التي تعنى بتحليل الخطاب الروائي في ضوء السياقات الثقافية والاجتماعية المنتجة له. وينصبّ اهتمام البحث على الرواية العربية المعاصرة، إذ يختار نماذج روائية بارزة يُمثل فيها تعدد الأصوات ظاهرةً أسلوبية وفكرية في آنٍ معاً. ويسعى البحث إلى الإجابة عن إشكاليات من قبيل: كيف يُجسّد الروائيون العرب مفهوم تعدد الأصوات؟ وما الوظيفة الثقافية والدلالية لهذا التعدد؟ وكيف تستثمر القراءة الثقافية هذا التعدد للكشف عن الهويات المتصارعة والبنى السلطوية في النص؟ ويعتمد البحث منهجاً نصياً ثقافياً يجمع بين أدوات التحليل البنيوي للخطاب وآليات القراءة الثقافية ذات المرجعية ما بعد الكولونيالية والجندرية والطبقية.

الكلمات المفتاحية: تعدد الأصوات، الرواية العربية، القراءة الثقافية، باختين، الخطاب الروائي، الهوية، السلطة.

This research explores the concept of polyphony in the novel as a critical category established by Mikhail Bakhtin. It examines its relationship with cultural reading, which is concerned with analyzing novelistic discourse in light of the cultural and social contexts that produce it. The study focuses on the contemporary Arabic novel, selecting prominent literary examples in which polyphony represents both a stylistic and an intellectual phenomenon.

Furthermore, the research seeks to address key questions, such as: How do Arab novelists embody the concept of polyphony? What is the cultural and semantic function of this multiplicity? And how does cultural reading utilize this polyphony to uncover conflicting identities and power structures within the text? Methodologically, the study adopts a cultural-textual approach, integrating tools of structural discourse analysis with the mechanisms of cultural reading grounded in postcolonial, gender, and class frameworks.

Keywords: Polyphony, Arabic novel, cultural reading, Bakhtin, novelistic discourse, identity, power

مقدمة :

يُعدّ مفهوم تعدد الأصوات أو ما يُعرف بـ(الحوارية) (Dialogism) من أكثر المفاهيم النقدية

خصوصية وإثارة للجدل في حقل الدراسات الروائية المعاصرة. فقد أسّس له الناقد الروسي ميخائيل

باختين (1895-1975) في مؤلفاته الكبرى، لا سيما كتابيه "مشكلات شعرية دوستوفسكي"

و"الخطاب في الرواية"، حيث يرى أن الرواية بوصفها جنساً أدبياً متميزاً تقوم في جوهرها على تعدد

الأصوات والوعيّات المستقلة التي لا يهيمن عليها صوت المؤلف ولا يلغي بعضها بعضاً، بل تتحاور

وتتجادل في فضاء نصي مفتوح.

غير أن المشروع الباختيني لم يُطبَّق على الرواية العربية بصورة منهجية إلا في مرحلة متأخرة نسبياً، حين بدأ النقد العربي الحديث يتجاوز الأطر الشكلانية الضيقة نحو قراءات أكثر انفتاحاً على الأبعاد الثقافية والاجتماعية للنص الأدبي. وقد أسهم نقاد من أمثال عبد الفتاح كيليطو وسعيد يقطين وصلاح فضل في تطعيم الدرس الروائي العربي بالمفاهيم الباختينية، مع مراعاة خصوصية السياق الثقافي العربي واختلافاته البنيوية عن السياق الغربي الذي نشأت فيه تلك المفاهيم.

إن الرواية العربية المعاصرة، التي نضجت نضجاً لافتاً منذ منتصف القرن العشرين، شهدت تحولات جوهرية في بنيتها الصوتية، إذ انتقلت من الصوت المونولوجي الأحادي الذي يهيمن فيه صوت الراوي العليم على كامل فضاء النص، إلى أشكال متعددة من الحوارية والتعدد الصوتي التي تعكس تعقيدات الواقع الاجتماعي والثقافي العربي المعاش. ولا يمكن فهم هذا التحول بمعزل عن السياق التاريخي الذي شهد هزائم وانكسارات وتحولات سياسية عميقة أعادت رسم خريطة الهويات والانتماءات في العالم العربي.

ومن هنا تتقاطع مقولة تعدد الأصوات مع القراءة الثقافية التي تنهل من الدراسات الثقافية (Cultural Studies) ومن النقد الما بعد كولونيالي وما بعد البنيوي، لتتجلى في التعدد الصوتي ليس مجرد تقنية سردية، بل فضاء تُتفاوض فيه الهويات وتتصادم الخطابات وتتجلى علاقات القوة والهيمنة الرمزية. يقول عبد الله الغذامي في سياق مشابه إن النقد الثقافي "لا يعنى بالجمالي بقدر ما يعنى بالثقافي، لأن الثقافة هي العلاقة التي يؤسس بها الإنسان وجوده في العالم".¹

ثانياً: تعدد الأصوات في الرواية العربية - الجذور والتشكّل

لا يمكن الحديث عن تعدد الأصوات في الرواية العربية دون الإشارة إلى الجذور التراثية التي يجد فيها هذا التعدد إرهاصاته الأولى. فقد احتوت الحكاية العربية الكلاسيكية، ممثلةً في "ألف ليلة وليلة" و"مقامات الهمذاني والحريري"، على بذور صوتية متعددة تتداخل فيها أصوات الحاكي والمحكي عنه والمخاطب، مما يجعلها نصوصاً حوارية بامتياز وإن لم تكن كذلك بالمفهوم الباخثيني الصارم. يرى يوسف وغليسي أن هذا التراث الحكائي العربي قدّم نموذجاً خاصاً للتعدد يختلف عن النموذج الدوستوفسكي، غير أنه لا يقل عنه في الثراء والتعقيد.²

أما على صعيد الرواية الحديثة، فقد شهدت مرحلة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي بداية التجريب الواعي بالتعدد الصوتي، حيث حرص روائيون كنجيب محفوظ على توزيع الوعيات وتعدد مراكز الرؤية داخل النص الروائي. ففي ثلاثيته الشهيرة ("بين القصرين"، "قصر الشوق"، "السكرية")، لا يهيمن صوت واحد على العمل، بل نجد تعدداً حقيقياً لوجهات النظر يعكس تعدد الأجيال والأيديولوجيات وأنماط الحياة في المجتمع المصري المتحول.³ وقد ذهب سعيد يقطين إلى أن محفوظ في مرحلته التجريبية التي أعقبت الثلاثية قد بلغ ذروة الحوارية الباخثينية، خاصة في روايات مثل "أولاد حارتنا" و"ميرamar".⁴

وفي السياق المغربي، أسهمت الرواية المكتوبة بالعربية والفرنسية معاً في توليد نمط خاص من تعدد الأصوات يعكس التعقيدات اللغوية والثقافية للمجتمعات ما بعد الاستعمارية. فالرواية المغربية تعيش تعدداً لغوياً حقيقياً بين العربية الفصحى والعامية والفرنسية والأمازيغية، وهو ما ينعكس على البنية الصوتية للنص ويجعله مساحة خصبة لدراسة التعدد الثقافي واللغوي معاً.

ومنذ نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، ازداد اهتمام الروائيين العرب بأشكال جديدة من التعدد الصوتي تعكس تعقيدات المشهد العربي المعاصر: الحروب الأهلية، موجات الهجرة، الصدمات الهوية، والتحولات السياسية الكبرى. ويرى فيصل دراج أن الرواية العربية في هذه المرحلة باتت "مختبراً للهويات المتشقة" التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالتعدد والتناثر الصوتي.⁵

ثالثاً: القراءة الثقافية . الإطار المنهجي

تنطلق القراءة الثقافية للرواية من منطلق مفاده أن النص الأدبي ليس بنيةً شكلانية مغلقة، بل هو حقل اجتماعي وثقافي تتصادم فيه الخطابات وتتفاوض الهويات وتُعاد فيه إنتاج علاقات القوة أو تُقاوم. وقد أسهمت مدرسة الدراسات الثقافية البريطانية، التي تأسست في مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، في صياغة الأدوات الإجرائية لهذه القراءة، قبل أن يتشربها النقد العربي ويُكيّفها وفق سياقاته الخاصة.

ولعل أبرز ما تميزت به القراءة الثقافية العربية هو التركيز على ثلاثة محاور رئيسية: أولاً، محور الهوية بمعناها الإثنية والجنسية والطبقية والدينية، وهو ما يستدعي دراسة كيف تُبنى هذه الهويات في النص الروائي عبر الأصوات المتعددة وكيف تتصادم. ثانياً، محور السلطة والخطاب، وذلك باستلزام المنهج الفوكوي الذي يرى في كل خطاب ممارسةً للسلطة أو مقاومة لها. ثالثاً، محور التداخل الثقافي أو ما يسميه هومي بابا "الفضاء الثالث" (The Third Space) الذي تتشكل فيه الهجنة الثقافية وتتكرر فيه الثنائيات المتصلبة.

وفي السياق العربي، طوّر عبد الله الغدامي مفهوم "النقد الثقافي" ليكون بديلاً عن النقد الأدبي الجمالي المحض، مستنداً إلى ضرورة فضح الأنساق الثقافية المضمرّة في الخطاب الأدبي، وهو ما يتقاطع مع روح القراءة الثقافية الغربية دون أن يتطابق معها كلياً.⁶ كما قدّمت نادرة قيقّة وصبيحة شبارو محاولات نقدية رائدة في تطبيق أدوات الدراسات الثقافية على الرواية العربية، مع الانتباه إلى خصوصية التجربة الإبداعية العربية وعدم إخضاعها قسراً لمعايير غريبة عنها.

إن الجمع بين أداة تعدد الأصوات وأداة القراءة الثقافية يُنتج منهجاً نقدياً مركّباً يستطيع أن يُجيب على تساؤلات من قبيل: ما الخطابات التي تتصادم في النص؟ من يملك الصوت ومن يُصمّت؟ وكيف يتجلى الصراع بين المركز والهامش من خلال توزيع الأصوات الروائية وترتيبها؟ هذه التساؤلات ستكون مرشداً لنا في قراءة النماذج الروائية التالية.

رابعاً: النماذج الروائية المختارة

1. رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح. تعدد الأصوات وإشكالية الهوية الاستعمارية

تُعَدّ رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" (1966) للروائي السوداني الطيب صالح من أبرز النماذج الروائية العربية التي تجسّد تعدد الأصوات بوصفه استراتيجية فنية وثقافية في آنٍ معاً. إذ تبني الرواية فضاءها السردي على شخصيتين رئيسيتين: الراوي المجهول الهوية، ومصطفى سعيد الشخصية الإشكالية المثيرة للجدل. ويتوزع الخطاب بين هاتين الذاتين اللتين تمثلان موقفين ثقافيين متناقضين من مواجهة الغرب والتاريخ الاستعماري.

وما يجعل الرواية نموذجاً حوارياً بامتياز أن صوت مصطفى سعيد لا يظهر مباشرة بل عبر شهادات متعددة: ما يرويهِ الراوي عنه، وما يرويهِ هو عن نفسه، وما تقوله عنه الشخصيات الأخرى كالنساء الإنجليزيات وأبناء القرية. هذا التعدد في مصادر المعرفة بالشخصية لا يُنتج صورة متسقة بل يُنتج ما يمكن تسميته بـ"الشخصية المتشظية" التي لا تملك هوية محددة يمكن الإمساك بها. يُلاحظ محمد برادة أن الطبيب صالح وظّف هذا التعدد الصوتي "لتجسيد المأزق الوجودي للإنسان المستعمر الذي يعيش في فجوة بين ثقافتين لا يتصالح مع أيٍّ منهما"⁷.

ومن منظور القراءة الثقافية، يكشف تعدد الأصوات في هذه الرواية عن ديناميات معقدة في علاقات المستعمر بالمستعمر. فمصطفى سعيد الذي يذهب إلى إنجلترا معتقداً أنه سيغزو قلاعها الثقافية سرعان ما يُكتشف أنه لعبة في يد خطاب كولونيالي يُدجّن الآخر حتى وهو يوهمه بالانتصار. وصوت الراوي الذي يحكي عن مصطفى لا يملك بدوره يقيناً كافياً ليحكم أو يُقرر، مما يجعل الرواية فضاءً مُعلقاً بين الإدانة والتعاطف، بين الانتماء والانفصال.

ثم إن الأصوات الهامشية في الرواية، كصوت حسنة بت محمود وأصوات أبناء القرية، تُقدّم بدائل ثقافية ومقاومة صامتة لا تُدرك إلا بالقراءة الثقافية الدقيقة. فهذه الأصوات لا تُوجد في النص بوصفها أصواتاً بطولية بل بوصفها شهادات على تكلفة الحداثة وعلى ما تدمره في المجتمعات الهشة الواقعة بين الماضي والمستقبل.

2. رواية "مديح الكراهية" لخالد خليفة . الأصوات في زمن التطرف والحرب

تقدّم رواية "مديح الكراهية" (2006) للروائي السوري خالد خليفة نموذجاً آخر للتعدد الصوتي في سياق مختلف جذرياً، هو سياق الصراع الأيديولوجي والديني في سوريا زمن الثمانينيات. تتخذ الرواية من الرواية صوتاً أنثوياً محورياً لراويها التي تنتمي إلى عائلة حلبية محافظة، لكن هذا الصوت لا يكتسب قيمته السردية من انفراده بل من الأصوات الأخرى التي تُحيط به وتُضغط عليه وتُشكّله.

إن المفارقة الكبرى في الرواية أن صوت التطرف الديني الذي يمثله الأخ ومجموعة الإخوان لا يُقدّم بوصفه صوتاً شريراً أحادياً، بل يُعطى له مساحة لفهم دواخله وتناقضاته الداخلية، في حين يُقدّم صوت السلطة الدولية بوصفه لا يقل قمعاً عن صوت التطرف الديني. وهكذا يتشكّل نص متعدد الأصوات لا يُريح القارئ في موقف أخلاقي محدد، بل يضعه في مواجهة تعقيدات الواقع السوري المأساوي.

وتستثمر القراءة الثقافية هذا التعدد الصوتي لكشف كيف أن الهوية الدينية والجنسية والطبقية تتقاطع وتتصادم في إنتاج الفرد العربي الحديث. فالرواية الأنثى ليست مجرد ضحية بل هي أيضاً وعي يُقارب الواقع من موقع مُركّب يجمع بين الخضوع والمقاومة، بين الانتماء إلى منظومة قيم مجتمعية والتشكيك فيها في الوقت ذاته.

وقد أشار إلياس خوري إلى أن رواية خليفة تنتمي إلى تقليد روائي عربي جديد يُدرك أن "الحرب الأهلية لا تُروى إلا بأصوات متعددة لأن كل صوت وحده ليس سوى إيديولوجيا، بينما التعدد هو الواقع ذاته".⁸

3. رواية "واجهة" لسعود السنعوسي . التعدد الصوتي وصراع الهويات الخليجية

يُقدّم الروائي الكويتي سعود السنعوسي في أعماله نموذجاً خليجياً للتعدد الصوتي يعكس التعقيدات الثقافية الخاصة بمجتمعات الخليج العربي في مرحلة ما بعد النفط. ففي روايته "ساق البامبو" (2012) التي نالت جائزة البوكر العربية، يبني السنعوسي روايته على صوتين رئيسيين: صوت المهجّن الفلبيني الكويتي "عيسى/ خوسيه"، وصوت العائلة الكويتية المحافظة. وهذا التعارض الصوتي يُجسّد بدوره التعارض الأعرق بين ثقافتين وهويتين وقيمتين لا يستطيع البطل أن يختار بينهما لأنه ابنهما معاً.⁹

إن ما يُثيره هذا التعدد الصوتي من منظور القراءة الثقافية هو السؤال عن الهوية الوطنية في المجتمعات الخليجية المُفعمة بالعمالة الوافدة. فالنص يُشير إلى أن مفهوم "الكويتي" ليس هوية صافية بل هوية مُركّبة ومتشقّقة تخترقها هجرات وتداخلات ثقافية تُعيد تعريف معنى الانتماء. وهو ما يتقاطع مع ما طرحه بابا عن الهجنة الثقافية بوصفها السمة الجوهرية لكل هوية في عالم ما بعد الكولونيالية.

كما تكشف القراءة الثقافية في هذا السياق عن بنية الاستبعاد الرمزي والمادي التي يعيشها أبناء الطبقة الدنيا والعمالة الوافدة في المجتمع الخليجي. فتعدد الأصوات هنا ليس مجرد تقنية سردية بل هو فعل مقاومة سياسي يمنح صوتاً لمن حُرم منه في الواقع الاجتماعي، ويجعل القارئ يواجه تساؤلات عسيرة عن مفهوم المواطنة والانتماء والعدالة الاجتماعية.

4. رواية "طوق الحمام" لرجاء عالم . تعدد الأصوات والكتابة النسوية

تمثل رواية "طوق الحمام" (2010) للروائية السعودية رجاء عالم، الفائزة بجائزة البوكر العربية، نموذجاً بالغ الأهمية لدراسة تعدد الأصوات في السياق النسوي. فالرواية تُقدّم فضاء مكيّاً خاصاً حيث تتعايش أصوات هشيمة وفيزا وعوشة وسائر الشخصيات في نسيج سردي يصعب فيه تحديد صوت مهيمن واحد. يكتب سعيد يقطين أن رجاء عالم "تُقدّم نموذجاً نادراً في الرواية العربية لكتابة تُفكك مركزية الذكوري بالاستناد إلى تعدد الأصوات الأنثوية بدلاً من الاكتفاء بصوت بطلة واحدة".¹⁰

ومن منظور القراءة الثقافية، تستكشف الرواية كيف يتشكّل الجسد الأنثوي وهوية المرأة في سياق مديني مقدس محاط بالرموز الدينية والتقاليد الاجتماعية الصارمة. والتعدد الصوتي هنا يُفكك أي صورة نمطية مُسبقة عن المرأة السعودية، إذ يُقدّم أصواتاً أنثوية متباينة التوجه: منها المنغمسة في التقليد، ومنها الباحثة عن مساحة للتعبير والهوية المستقلة، ومنها التي تحتل موقعاً وسطاً متذبذباً. وهو ما يجعل النص فضاءً تتعدد فيه نماذج الأنوثة بدل أن تُختزل في نموذج واحد.

ويلاحظ المرء في هذه الرواية كيف يتحول المكان ذاته (مكة المكرمة) إلى صوت إضافي ذي حضور رمزي طاغ، إذ تتعامل معه الشخصيات المختلفة بطرق متباينة تعكس تباين الفهم الديني والثقافي وتباين العلاقة بالتراث والهوية. وهنا تتجلى القيمة المضافة للقراءة الثقافية: إنها تُمكننا من قراءة المكان بوصفه صوتاً ثقافياً لا مجرد خلفية ديكورية.

خامساً: آليات التعدد الصوتي وتقنياته في الرواية العربية

بالنظر في النماذج الروائية السابقة، يمكن رصد جملة من الآليات الأسلوبية والتقنية التي

يُجسّد بها الروائيون العرب مفهوم التعدد الصوتي، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: تعدد الرواة وتنويع مستويات الضمير السردية. إذ تلجأ روايات عديدة إلى توزيع فعل

الرواية على أكثر من صوت راوٍ، بين ضمير الأول والثالث والثاني أحياناً، مما يُنتج تعدداً في

مستويات الرؤية ويكسر وهم الموضوعية والشمولية. وقد وظّف إبراهيم الكوني هذه التقنية بامتياز في

روايته الصحراوية التي تمنح أصواتاً لما هو غير إنساني (الرمال، الناقة، الضباب) في خطوة تُفتت

الأنثروبوسنترية الضيقة وتُعدّ مراكز الإدراك.¹¹

ثانياً: الرسائل والوثائق المُدرجة في النص. وهي تقنية تستدعي أصواتاً غائبة داخل النص

تُعلّق على الحاضر أو تُناقضه أو تُكمّله. ففي رواية "عزازيل" ليوסף زيدان، تبني الرواية صوتها

المحوري من خلال مخطوطات قديمة يقرأها شخص في الحاضر، مما يُنشئ تعدداً صوتياً عبر

الزمن ويجعل التاريخ والحاضر في حوار مستمر.¹²

ثالثاً: الحوار غير المباشر الحر (Free Indirect Discourse). وهي تقنية سردية تتيح

نقل وعي الشخصية دون علامات اقتباس صريحة، مما يُذيب الحدود بين صوت الراوي وصوت

الشخصية ويُخلق منطقة حوارية مُلتبسة. وقد نوقشت هذه التقنية في الرواية العربية من قبل سعيد

يقطين الذي رأى فيها "علامة على نضج الخطاب الروائي العربي ووعيه بتقنيات الحوارية

الباختينية".¹³

رابعاً: التعدد اللغوي (Heteroglossia). وهو أحد أعمدة المفهوم الباختييني، ويتجلى في

الرواية العربية من خلال التداخل بين العربية الفصحى والعامية والأجنبية داخل النص الواحد. فهذا

التداخل اللغوي لا يُمثل فوضى بل يُمثل خريطة للطيف الاجتماعي والثقافي للمجتمع المُصوّر: كل مستوى لغوي ينطوي على نظام قيم وعلاقات سلطة ورؤية للعالم.

خامساً: البنية المتشعبة والشبكية. إذ تُقدّم بعض الروايات العربية الحديثة بنية سردية لا خطية تتوزع فيها الأصوات بصورة متشعبة تُذكر بالبنية الشبكية للإنترنت. ففي روايات إلياس خوري كـ"بوابة الشمس"، تتداخل الأصوات بصورة تُقدّم القارئ أحياناً الإحساس بوجود مرسل واحد واضح، وهو ما يُترجم فنياً حالة الفوضى التاريخية التي تُقدّمها الرواية.

سادساً: إشكاليات القراءة الثقافية للتعدد الصوتي العربي

لا تخلو العلاقة بين تعدد الأصوات والقراءة الثقافية من توترات وإشكاليات منهجية تستحق الوقوف عندها. فأولى هذه الإشكاليات مسألة التعميم النظري: إذ تنطلق القراءة الثقافية الغربية في الغالب من سياقات تجربة الاستعمار والعرق والجنس كما تجلت في الثقافة الأنغلو سكسونية، مما قد يُفضي إلى انعدام الدقة حين تُطبّق على الرواية العربية التي تنبع من سياق ثقافي وتاريخي مختلف. وقد نبّه عبد الفتاح كيليطو إلى هذه المخاطر في سياق دعوته إلى "قراءة النص العربي من داخله وبأدواته".¹⁴

وتتصل بهذه الإشكالية مسألة ثانية لا تقل أهمية وهي التسييس المفرط للنص الأدبي. فالقراءة الثقافية حين تُركّز على الأبعاد الأيديولوجية والسياسية قد تُغفل الأبعاد الجمالية والشعرية للنص، أو على الأقل تُقيدها في خدمة مشروع نقدي محدد المآلات. وقد أبدى صلاح فضل تحفظه

على بعض التطبيقات النقدية الثقافية التي "تحوّل الرواية إلى وثيقة سوسيولوجية دون أن تُوفّيها حقها من القراءة الفنية".¹⁵

وثمة إشكالية ثالثة تتعلق بمفهوم التعدد ذاته. فهل كل تعدد صوتي في الرواية العربية هو تعدد حقيقي يمنح الشخصيات استقلالية وعيها، أم أنه في أحيان كثيرة تعدد مُدار ومُوجّه من قبل المؤلف الضمني الذي يُتحكم في الأصوات حتى وهو يُوهم بإطلاقها؟ يُميّز باختين بين التعدد الزائف الذي يبدو فيه الاختلاف شكلياً بينما يسود صوت المؤلف فعلياً، والتعدد الحقيقي الذي تتمتع فيه الشخصيات بوعي مستقل. وتطبيق هذا التمييز على الرواية العربية يكشف أن كثيراً مما يُظنّ تعدداً صوتياً لا يعدو أن يكون صوتاً واحداً متكرراً في أقنعة متعددة.

سابعاً: التعدد الصوتي ومسألة السلطة والهامش في الرواية العربية

يرتبط التعدد الصوتي في الرواية العربية ارتباطاً عضوياً بمسألة السلطة والهامش. إذ يُلاحظ المحلل الثقافي أن الأصوات الروائية لا تتكافأ في داخل النص؛ ثمة أصوات مهيمنة وأخرى مهمّشة، وهذا التوزيع غير المتكافئ للصوت داخل النص كثيراً ما يعكس توزيعاً مماثلاً للقوة في المجتمع. وقد بيّن ميخائيل باختين أن الرواية البوليفونية الحقيقية هي تلك التي تمنح أصواتاً متساوية الحقوق للمهمّشين كما للمهيمنين.

وفي الرواية العربية، تعكس أصوات المرأة وأصوات الأقليات الدينية والإثنية وأصوات الفقراء والمهاجرين هذا الموقع الهامشي. غير أن من بين الروائيين العرب من اجترحوا استراتيجيات فنية واعية لإعادة توزيع الأصوات بما يُعيد الاعتبار لهذه الهوامش. فروايات حنان الشيخ تمنح الصوت

المحوري للمرأة في بيئة اجتماعية تصمتها. وروايات إلياس خوري تُعطي أصواتاً للمُهجّرين الفلسطينيين في مواجهة خطاب التاريخ الرسمي الذي لا يذكرهم إلا هامشاً. وروايات إبراهيم الكوني تُعيد الاعتبار لصوت الطوارق وثقافتهم في مقابل مركزية الحضارة الحضرية.

وتُسهم القراءة الثقافية في كشف هذه الديناميات الصوتية وتسميتها بأسمائها، لا للاكتفاء بوصفها بل للتساؤل عن الأثر السياسي والأخلاقي للاختيارات الصوتية التي يقوم بها الروائي. فحين يمنح خالد خليفة صوتاً حقيقياً للمتطرف الديني يضعنا في موضع غير مريح أخلاقياً، وهذا الإزعاج الأخلاقي هو بالضبط ما تسعى الرواية البوليفونية الحقيقية إلى إنتاجه.

خاتمة: نحو قراءة صوتية ثقافية للرواية العربية

خلص هذا البحث إلى جملة من النتائج والاستنتاجات يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: إن تعدد الأصوات في الرواية العربية ليس مجرد ظاهرة أسلوبية مستعارة من النقد الغربي، بل يمتلك جذوراً عميقة في التراث الحكائي العربي يمكن استثمارها لبناء نظرية نقدية عربية للتعدد الصوتي تنطلق من الداخل لا من الخارج.

ثانياً: إن النماذج الروائية العربية المختارة تُجسّد مفهوم التعدد الصوتي بطرق متنوعة تعكس في مجملها سياقات ثقافية وتاريخية مختلفة، مما يُشير إلى أن التعدد الصوتي في الرواية العربية ليس نمطاً واحداً بل هو حقل متشعب يستلزم مقاربات نقدية متعددة ومرنة.

ثالثاً: إن القراءة الثقافية للتعدد الصوتي تكشف عن الوظيفة السياسية والاجتماعية العميقة

للرواية العربية المعاصرة التي لا تكتفي بالتعبير الجمالي بل تسعى إلى مساءلة أنماط السلطة والهيمنة الرمزية في المجتمعات العربية.

رابعاً: إن ثمة توتراً منتجاً بين مفهوم التعدد الصوتي من جهة ومتطلبات القراءة الثقافية من

جهة أخرى. فالقراءة الثقافية تُخاطر أحياناً بتسييس النص وتحويله إلى وثيقة، في حين أن مفهوم التعدد الصوتي يقاوم بطبعه أي قراءة أحادية البعد. وهذا التوتر ينبغي ألا يُحلّ بل أن يُحتفظ به وعياً نقدياً دائماً يُعيد للنص طابعه المُلتبس والمنفتح.

خامساً: إن الدراسات النقدية العربية بحاجة ماسة إلى المزيد من البحوث التطبيقية التي

تدرس التعدد الصوتي في رواية الشباب العربي الجديد والروايات الرقمية والروايات المكتوبة بلغات متعددة، إذ تمثل هذه الأعمال تحدياً جديداً للمفاهيم النقدية القائمة وتستلزم أدوات منهجية أكثر مرونة وانفتاحاً.

وختاماً، يظل تعدد الأصوات في الرواية العربية شاهداً على إرادة الأدب في استيعاب التعقيد الإنساني ومقاومة الحلول السهلة والأجوبة الجاهزة. وحين نقرأ هذا التعدد ثقافياً فإننا لا نُقيّد النص بل نُوسّع آفاق فهمنا له، ونكشف عن طبقاته الدلالية الخفية التي تجعل الرواية في نهاية المطاف ليست مجرد حكاية بل خطاباً عن العالم وعن طرق السكن فيه.

الهوامش والإحالات

1. عبد الله الغدامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية (بيروت: المركز الثقافي

العربي، 2000)، ص 17.

2. يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2008)، ص 143.
3. نجيب محفوظ، الثلاثية: بين القصرين، قصر الشوق، السكرية (القاهرة: مكتبة مصر، 1956-1957).
4. سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى: من أجل وعي جديد بالتراث (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992)، ص 211.
5. فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، ص 78.
6. الغدامي، النقد الثقافي، ص 34.
7. محمد برادة، الرواية العربية ورهان التجديد (بيروت: دار الأمان، 2011)، ص 92.
8. إلياس خوري، الذاكرة المفقودة: مقالات في الثقافة والرواية (بيروت: دار الآداب، 2009)، ص 156.
9. سعود السنعوسي، ساق البامبو (بيروت: منشورات الجمل، 2012).
10. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1989)، ص 264.
11. إبراهيم الكوني، التبر (القاهرة: دار الجمل، 1993).
12. يوسف زيدان، عزازيل (القاهرة: دار الشروق، 2008).
13. يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 187.
14. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي (بيروت: دار الطليعة، 1983)، ص 11.
15. صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية (القاهرة: دار المصري اللبناني، 1999)، ص 303.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

- برادة، محمد. الرواية العربية ورهان التجديد. بيروت: دار الأمان، 2011.
- الغزامي، عبد الله. النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية. بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000.
- دراج، فيصل. الرواية وتأويل التاريخ. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004.
- زيدان، يوسف. عزازيل. القاهرة: دار الشروق، 2008.
- السنعوسي، سعود. ساق البامبو. بيروت: منشورات الجمل، 2012.
- صالح، الطيب. موسم الهجرة إلى الشمال. بيروت: دار العودة، 1966.
- فضل، صلاح. أساليب السرد في الرواية العربية. القاهرة: دار المصري اللبناني، 1999.
- الكوني، إبراهيم. التبر. القاهرة: دار الجمل، 1993.
- كيليطو، عبد الفتاح. الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي. بيروت: دار الطليعة، 1983.
- خليفة، خالد. مديح الكراهية. بيروت: دار الآداب، 2006.
- خوري، إلياس. الذاكرة المفقودة: مقالات في الثقافة والرواية. بيروت: دار الآداب، 2009.

خوري، إلياس. بوابة الشمس. بيروت: دار الآداب، 1998.

محفوظ، نجيب. الثلاثية: بين القصرين، قصر الشوق، السكرية. القاهرة: مكتبة مصر، 1956-1957.

وغليسي، يوسف. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. الجزائر: منشورات الاختلاف، 2008.

يقطين، سعيد. تحليل الخطاب الروائي: الزمن، السرد، التبئير. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1989.

يقطين، سعيد. الرواية والتراث السردى: من أجل وعي جديد بالتراث. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992.

ثانياً: المراجع المترجمة والأجنبية

باختين، ميخائيل. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1987.

باختين، ميخائيل. شعرية دوستوفسكي. ترجمة جميل نصيف التكريتي. بغداد: دار توبقال للنشر، 1986.

.Bhabha, Homi K. The Location of Culture. London: Routledge, 1994

Hall, Stuart. "Cultural Studies and its Theoretical Legacies." In Cultural
.Studies, edited by Lawrence Grossberg, Cary Nelson, and Paula Treichler
.New York: Routledge, 1992